«الأمثلة الدالة على الجودة يجب أن تدفعنا دوماً للتفكير بإمعان»

كريستيان ريدر في حديث مع أمين معلوف

التقيت بأمين معلوف في منطقة تعتبر بالنسبة لكلينا بعيدة جداً نحو الغرب في جزيرة "ديو" الصغيرة الواقعة في المحيط الأطلسي على مسافة سفر ساعة بالباخرة من الشاطئ الفرنسي. استرعى انتباهي الازدحام في متجر الكتب الواقع على الميناء، حيث كان يقوم بوضع توقيعه على كتب. بدأنا حديثنا، ثم تابعناه فيما بعد، واستمرت علاقتنا التي بدأت آنذاك. لنهج حياته حتى الآن العديد من مظاهر الهروب الموفق. فر من بيروت عام ١٩٧٦ مع زوجته الحامل، فالصراعات المستمرة جعلت من غير الممكن أن يبقيا هناك. مدينة مدمّرة والخوف الدائم لا يمكن أن يوفرا آفاقاً في الحياة. لم يُبق لهما الخراب الذي لا حد له كمبدأ مسيطر استمر سنوات عديدة أي خيار آخر. استقبلتهما باريس آنذاك - كما يؤكد - بروح الصداقة.

وباعتباره كان صحافياً معروفاً لم تكن البداية الجديدة أمراً صعباً بالنسبة له. تم قبوله ككاتب منذ صدور كتابه الأول "الحملات الصليبية من وجهة نظر عربية" (١٩٨٣)، فتحت كتبه ومقالاته - التي ترجمت حتى الآن إلى اثنتي عشرة لغة - أبعاداً واسعة بمنظور له أبعاده زمانياً ومكانياً وجغرافياً وسياسياً، جرت معها القدرة على الترحال متعدد الوجوه والصراعات المتولدة عن ذلك، التي أصبحت في منطقة شرق المتوسط منذ زمن طويل أمراً حاضراً في الحياة اليومية، فالانقسام الثقافي والاقتصادي إلى شرق "مشرقي" وغرب "أوروبي"، بمزجه ما بين الحقائق والصور بين التركيب الشمولي وأحادية الجانب شغله في الكثير من الوجوه. قاده استقصاؤه عن الأسباب والإمكانات، عن الاختلافات والتشابهات إلى صور دقيقة تحكي - وهو قاص متحمس - عما يحدث وعما حدث، حيث تظل فرص وإمكانات ماثلة بأسلوب هادئ أقرب ما يكون إلى الكمون. لم يعد شيء يلزمه بفكر حول القوميات والانتماءات القومية.

يتركز اهتمامه في المجتمعات التي تشغله بالدرجة الأولى على تقاليد التبادل والتحضر والتعامل المرن مع الغرباء، لأن هناك عوائق نتجت عموماً في طريق مثل هذه الاعتيادية. بترسيم الحدود نشأت تجارب مختلفة كل الاختلاف عنها في أوروبا، كما تختلف التصورات عن العالم الخارجي، عن المجالات العامة والخاصة اختلافاً بيّناً. من الخارج جاءت دائماً، الحركة والضغط كدمار. التجربة الأساسية هي تجارة بعيدة المدى والتعامل مع العديد من اللغات، مع أناس من مختلف الانتماءات والديانات. فالتكبر حيال الآخرين قلما تكون له حدود صلبة كما درج عليه الغرب، حيث يتجدد دائماً المفهوم القديم القائل "نحن والبرابرة". فالكثير من "شبه الأنظمة" لهذا الكيان الاجتماعي غير المتجانس اضطرت منذ القديم للبحث عن إمكانات للتعاون وتسوية النزعات. والتسامح المعروف في هذه المنطقة يدخل في موقف حرج بالدرجة الأولى، عندما لا يبقى للتبادل والنقد الذاتي أي إطار اجتماعي.

إن التمعن في مثل هذه الأسئلة المستترة يمكن بلا ريب أن يلقي ضوءاً على الحالة التي تغيرت مع الزمن وكذلك أيضاً على قوة فعالية الصياغة الغربية "للمشرق".

يكتب أمين معلوف "من الواضح أن تداول الصور والأفكار على المستوى العالمي، التي تتخذ حجماً يثير الدوار ولم يعد

بالإمكان السيطرة عليه سوف يغير بوقت قصير جداً - إذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر تاريخ الحضارة - معلوماتنا وأساليب سلوكنا ووجهات نظرنا بشكل جذري. وكذلك أيضاً - وبشكل جذري - سوف تغير ربما من إدراكنا الذاتي وكذلك أيضاً من إدراك انتماءاتنا وهويتنا".

باعتباره مؤلفا فعنده رغم كل التركيز على التاريخ، إدراك لقوى التغيير هذه وللحالات التي في غاية التعقيد، المحكوم بها مجاله الثقافي الأصلي، ومنها أيضاً مجالات "التعقيد" الأقل انتشاراً. صادق على دراستي حول "الأبجدية كمفتاح للشفرة"، أين يمكن التعبير عن التقاليد والأحرف الأبجدية والأعداد اليهودية والعربية واليونانية عبر بعضها البعض بتفكير حاسوبي وعلاقتها مع بعضها البعض، وقال ان الأمر كان حتي جيل جده - على الأقل - خارج دائرة التقوقع دائماً أمراً مألوفاً أن نجعل للكلمات والأعداد علاقة مع بعضها البعض، وذلك رغبة في معان إضافية وتداعيات وإشارات قد لا يمكن إدراكها منذ النظرة الأولى. كانت الإشارات تؤخذ كإشارات، كعناصر للتعامل متعدد الوجوه مع الإدراك والمعنى، مع علمي بأن أمين معلوف دائما وأبداً يلجأ إلى بيته الصغير فوق هذه الجزيرة الهادئة لمدة أشهر، ليكتب بأسلوب مستور. قمت بزيارته مرة أخرى في الصيف التالي، تموز ٢٠٠١ وهذه المرة بقصد إنتاج حوارات جاهزة للطباعة لهذا المشروع.

كان ذلك قبل ستة أسابيع من الهجمات على نيويورك والبنتاغون وكل الهجمات التي أعقبت ذلك وأخطار التصعيد اللاحقة. لم نقم بإجراء أية تغيرات على النص الأصلي الذي أعددناه في ذلك الوقت إذ قبله أمين معلوف على وضعه، كتلخيص أحداث دامت ساعات جرت باللغة الإنكليزية اعتبر فيها الموضوع أو ذاك لم يصبح ممكناً بعد.

كريستيان ريدر : في مقالتك تحت عنوان "انتماءات قاتلة" تناقش بأسلوب شامل من أجل "انتماءات مركبة"، من أجل وعي مدى قوة العلاقة القائمة بين عناصرها ومدى تفاعلها.

أمين معلوف، ولد عام ١٩٤٩ في لبنان. يعيش منذ عام ١٩٧٦ في فرنسا، حيث يعمل كصحفي وكاتب. كان مدير مجلة النهار الدولي الأسبوعية ومجلة "جون أفريك"، ومستشاراً لشؤون العالم العربي والعلاقات بين الغرب والشرق الأدنى. أول أعماله صدر بعنوان "الحملات الصليبية من وجهة نظر عربية" (١٩٨٣) الذي أصبح من المراجع الهامة. صدرت له بعد ذلك عدة روايات تاريخية منها : ليون الأفريقي، سمرقند، الرجل القادم من بلاد الرافدين، عودة سكارابيوس، موانئ المتوسط، رحلات السيد بالتزار. حصل عام ١٩٩٣ على جائزة غونكور. صدرت له عام ٢٠٠٠ مجموعة مقالات عن دار نشر Suhrkamp الألمانية بعنوان : "انتماءات قاتلة".

فهي تنكر اصطلاح "هوية" وتعتبره "صديقاً كذوباً" لأن الأمر يتعلق بانتماءات متعددة، في كل مكان من العالم تسود حتى الآن مفاهيم "قبلية" عن الهوية، الأمر الذي يمكن تحت ظروف ساخنة أن يرتقي إلى تصعيد قاتل. وباعتبارك قادما من لبنان "حيث على المرء أن يطرح على نفسه السؤال عن انتماءاته" كما تقول، فأنت من أسرة ذات خلفية مطبوعة بالطابع العربي وفي الوقت نفسه المسيحي، لكنك تعيش منذ مدة طويلة في فرنسا، أي بعيداً عن كل نظام ديني كما تؤكد، الأمر الذي يتناسب مع وضعي. فهل تشجع مثل هذه التجارب في منطقة أزمات دائمة بصورة أقوى بكثير عما هو الحال عادة، على الأحلام والتمني يمكن بموجبها التوصل إلى تخفيف حقيقي لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق القبول الأقوى متعدد الأطراف على هذا الشكل أو ذاك للانتماءات المركبة؟

أمين معلوف : بالتأكيد تشغلني مثل هذه التساؤلات نتيجة منشئي، فمنذ طفولتي وقفت أمامها وجهاً لوجه. وفي الوقت نفسه نشأ عندي الشعور القوي بأن الانتماءات المختلطة التي تضم الكثير من العوامل أبداً لا تنطبق على أناس مثلي فقط، ولدوا في حالات نموذجية "متعددة الثقافة"، بل تنطبق في نهاية المطاف على أي منا. فمن منا له انتماء بسيط ومحدد؟ وإذا ما زعم ذلك فإن الكثير سوف يتأطر أو سيبطل في الوقت نفسه، يجب أن يكون ذلك معلوماً، بما في ذلك الخسائر التي يتسبب بها. إن السبيل المؤدي إلى إثراء هذا العمل هو تنشيط أكبر قدر من هذه التأثيرات، لكنه بالتأكيد ليس الأسهل. ففي العالم الحاضر لا يعتبر في عداد أبسط ظروف الحياة، عندما تكون لديك العربية كلغة أم، وهي لغة الإسلام وفي الوقت نفسه وسط عائلي مسيحي، إن الأشكال الناتجة عن التأرجح بين منطقتين مختلفتين، موجودة في كل مكان، كارتحال وهجرة أو التنقل داخل بلد ما، بين مجموعة اجتماعية متعددة. بين حين وآخر - ولا أعني ذلك مجرد كناية - يضطر كل امرئ للحركة من منطقة إلى أخرى، من عالم إلى آخر. وبما أن مثل هذه المؤسسات الأساسية تتوسع وتتسارع تنتج بالضرورة إضافة عناصر انتماء. فالتمسك بناحية واحدة وتجاهل النواحي الأخرى لا يستطيع الصمود طويلاً.

كريستيان ريدر : لكن رغم ما تعلمناه من سلوك مفصّل على مختلف الأدوار كرجال ونساء ومؤلفين وآباء ومعلمين ورحالة وغرباء، كأعضاء في مجموعات عديدة ومتغيرة، فنحن عبارة عن أناس مرنين "ذوي امتيازات يعتزون بتفردهم متمسكين بالشعور القائل "نحن والآخرون". ففي كل مكان تتم الدعوة بطرق متنوعة، لكن التنوع الحقيقي تنتج عنه الحاجة إلى التفسير. ففي عالم التسويق والاختصاصيين لا يمكن أن يتم ذلك إلا بشروط.

فتمثيل مهنة أو شيء أو أي نوع من الاختصاص هو أقرب إلى القبول، فأنا أرى هنا موازيات لمنع الانتماءات متعددة الثقافات حتى ولو أن لذلك تأثيراً أكثر قسوة على المستويات "الإثنية".

أمين معلوف : لأن الربط بين شمولية الشخص والنماذج الثقافية هو بالتأكيد صحيح. فليست العوامل الإثنية أو الاجتماعية هي المسبب للصراعات. غالباً ما تكفي الحركة من منطقة إلى أخرى، ومن فئة عمرية إلى أخرى. وقد تعودنا منذ القديم على الكثير من ذلك وغير ذلك لم يصبح بعد "عادياً". لذلك فإن التوسط، حتى بخصوص عناصر الشخصية، قد أصبح هاماً جداً على غرار التحليل النفسي. لأية أسباب تصبح الصياغة الثقافية لشخص ما، أو مظهره، أو أية إشارة إلى أصله، أكثر أهمية من بقية الجوانب؟

إن الميل نحو التركيز على سمة مميزة هو بالتأكيد قوي، لكنه ليس إلا تصرف رديء إذا ما نظرنا فقط إلى الانتماءات الدينية أو الإثنية واعتبرنا أنها العنصر المسيطر، وفي الوقت نفسه يتضح أنه من الصعب إدراك عناصر الشخصية الأساسية. فنحن نحمل معنا صياغاتنا التي تخصص لكل مهنة مواصفات معينة وتحدد مواصفات كل أمة بشكل ما وتجعل التاريخ والحروب والعداوات جزءاً من التقاليد. لكن يجب أن يتضح شيئاً فشيئاً أننا الآن بصدد التخلي عن المرحلة

التي صاغت فيها الأمم الصور عن العالم - وصور الغرباء - إنها أيضاً مرتبطة بالتبسيطات كالتنميط المرجو لبعض المهن، فمن الأسهل ملاحظة ما يسمى بالنموذجي، كالعلامة التجارية. فالكثير، وحتى عندما تكون "نصفاً" يسهّل عمليات التفرقة والتمييز. أما كيف يتم تقدير الجوانب الأخرى، فهذا متعلق بالسياق الثقافي. فأن تكون نصف ألماني ونصف فرنسي يمكن الآن أن يُنظر إليه براحة أكثر مما يكون عليه الأمر في حالة وجود خليط أكثر بروزاً. وكان ذلك قبل فترة ليست ببعيدة، يعتبر مشكلة.

كريستيان ريدر : لكن من الواضح تماماً أن كل تأكيد على السيناريوهات متعددة الثقافات، والإثنيات والقوميات معرّض لمقاومة قوية رغم المذاهب اللبرالية. وقد غُرس ذلك بالشكل الأكثر وضوحاً على المستويات الاقتصادية للقوة. فالتجمعات التجارية الكبرى والمنظمات الدولية بحاجة ماسة إلى كادر متعدد الجنسية. لكن بخلفية إسلامية لا تنفتح أية إمكانية ارتقاء في أوروبا وأمريكا. أين ترى إذن مهام التواصل التي تتجاوز الثقافات في الواقع العملي؟

أمين معلوف : ربما هناك ميل لدى المثقفين لإبراز الملامح الشخصية الشاملة والمتناقضة بشكل خاص، الأمر الذي لا يعني أن الآخرين لا يفكرون بهذه الطريقة. بالتأكيد هناك الكثيرون ممن يعنون الأمر نفسه ولكن دون التعبير عنه. الأمر هو دائماً مسألة الأفق الممكن لرؤية عالمية. ماذا ندرك في الحياة اليومية عن طريق التلفزيون وعن طريق وسائل الاتصال المباشرة من المفاهيم في الصين أو في أفريقيا؟ كل شيء يسير عبر قنوات، ويتطلب الأمر جهوداً خاصة لتجاوز تلك الحدود. فالتوصيل يكون في أوج قوته عندما يعمل بشكل عارض ويؤثر على الحياة اليومية. فعن طريق الموسيقى نرتبط بسرعة بالقرائن الأوروبية والأفرو-أمريكية. وهنا توضح النوعيات المميزة التشابه، فموسيقى المجتمعات المتطورة هي بالتأكيد ليست أفضل من تلك التي في مجتمعات توصف بأنها "متخلفة". فالأمر هنا يتعلق بقضية النظر إلى هذا الموروث والقوة الكامنة في كليته، نظرة عالمية. إنه لم يأتِ من منبع واحد، بل هو مختلف جداً جداً، لكنه أبداً ليس معزولاً عن البقية. البعض يصلح من الناحية الثقافية. ففي أوروبا يزداد اعتماد الأشياء بأسلوب يتجاوز القوميات، والكثير منه يؤثر على الحياة بشكل مباشر جداً، وفي مناطق أخرى من العالم يتم ذلك بشكل أبطأ. لكن : أين سنجد بعد خمسين عاماً دولاً ذات حدود ثابتة وحكومات مستقلة؟

كريستيان ريدر : أصبح عالم الأعمال نموذجاً للسياسة، ولو أنه ما زال حتى الآن أقرب إلى الوهم. بالنسبة للمجموعات ذات الامتيازات لا تتولد عن ذلك مشاكل عديدة. فمدير شركة يمكن أن يكون إيطالياً أو لبنانياً، لكن لا يصح ذلك على عمدة برلين. "فالعولمات" المكشوفة ليست هي الموضوع، لأن الأمر يتعلق بالدرجة الأولى بالدفاع وتوسيع المجالات المفتوحة، بإمكانات تشكيل ومشاركة سياسية.

أمين معلوف : لأرى ذلك براجماتياً إلى حد كبير، يجب على العمدة أن يكون على اطلاع جيد على المكان الذي يتولى المسؤولية عنه، له خبرة فيه تشمل الكثير من تشعبات الحياة اليومية. لكن ليس من الضرورة أن يكون مولوداً في المكان. والشيء الذي لا يقل وضوحاً هو أن عالم الأعمال قد أصبح شيئاً فشيئاً هو الذي يحدد النظم.

كريستيان ريدر : هناك نقطة أخرى في كتاباتك وهي النقاش المتكرر حول التشابه والاختلاف "لم يحدث في الماضي أبداً أن كان للناس هذا العدد الكبير من الأمور المشتركة" هذه الجملة هي إحدى التقارير المتفائلة. وفي الوقت نفسه فإن الخصائص الفريدة، وأنماط الحياة الفردية عبارة عن برنامج تتم الدعاية له من كل الجوانب. وهذا ما يقوّي الميول نحو نفي التشابهات. فاللعبة السائدة الآن هي التفرد. أما إدراك التشابهات في المواقف وأنماط السلوك - الأمر الذي يهمني في الغربة بشكل خاص - لا يتناسب مع ذلك أبداً. وهنا يمكن للمعاني الدقيقة لمثل هذه التشابهات أن

تفتح آفاقاً كبقية الأعيب ما يسمى بالاختلافات التي يمكن تجاوزها. وبأسلوب متناقض يمكن للمتشابه أن يثقل على المرء بشكل رهيب.

أمين معلوف : هذه حركات متوازية. والأساس هو تشابه أساسي بين الناس، أو هكذا يجب أن يكون. إنه لمن البديهي أن يكون هناك الكثير المشترك أكثر فأكثر، وفي الوقت نفسه يبقى من المهم أن كل مجتمع يُنتج ثقافة يمكنه أن يكون منتجاً لها. لكي - مجرد وجهة نظر - نجعل بذلك عالمنا بمجمله يزداد غنى باستمرار. إن العالمية لا تنفصل عن التمايز. فالاتساق أو التشابه يقوي من الميل الجارف نحو الاختلافات.

كان ذلك سبباً أساسياً بالنسبة لي لكتابة هذا الكتيّب حول "الانتماءات". فالتوازن ما بين المشترك والمختلف يمكن بسهولة أن يدخل المرء في الحيرة. فالقوى المؤثرة جداً باتجاه العالمية تسفر عن ردود فعل باتجاه إمكانية التفريقية. كما ان التركيز القوي على الاختلافات يسفر عن تفرد وافتراقات وصراعات تزداد توسعاً.

كريستيان ريدر : البدائل عن وضع وسائل الإعلام بديناميتها الهدامة لا ترتسم أبداً ولا في أي مكان. والمعايير لموقف عام من "الغرباء" والاختلافات الإثنية في الآليات المتأرجحة المعتادة، التي قلما تجد فيها الأمثلة الإيجابية اهتماماً، لا تجد سوى النذر اليسير من الاعتبار. إذ لا يمكن بناء مناطق "ليبرالية" ثابتة فعلاً، رغم تجارب الإرهاب المخيفة في القرن العشرين في أوروبا - كوهم التفوق - من جانب اليابان، والكثيرين غيرهم. ربما تكون نيويورك وشيكاغو ومكسيكو أو البرازيل في هذا المجال مواضيع أكثر تشويقاً للدراسة من الكثير من المناطق الأوروبية. وإذا ما خفت حدة شيء ما، فإن ذلك يتم من خلال التغيرات الفكرية. فهل ترى لذلك أية مرتكزات أم مجرد حركات مضادة؟.

أمين معلوف: ما من بلد استطاع حتى الآن أن يحل ذلك. كما لا توجد أيضاً نماذج. وهذه المشاكل موجودة في كل مجتمع. ففي ذهني مثلاً تقارير حول البرازيل تظهر بدقة قلة عدد المطارنة من أصل أفريقي. وعملياً ليست هناك من إمكانية لأي منهم أن يصبح سيناتوراً أو رئيساً.

كريستيان ريدر : حسناً، تبقى المشاركة في عمليات طالما نحن متفائلين على الأقل.

هناك نقطة تتعلق بذلك، هي الاتجاه لتعريف ما هو أوروبي كنقيض لما هو غير أوروبي. تأقلم أو اختف، هذه هي الرسالة، تعلّم أو ابقَ غبياً. لم يتغير الشيء الكثير من هذه المواقف، حتى ولو أنها تأتي بحلة عصرية. كيف تفككت بطريقة فعالة؟ وعدم انتقاد الآخر وكأنه قاصر هو أيضاً نموذج أبوي (بطريركي) أو أمومي.

أمين معلوف : إن فكرة أوروبا، بالخطوط التخيلية التي تفصل بينها والتي تحدد مجالاً فكرياً، إما أن نشارك فيه، أو نبقى خارجه في البرية، ابحثها في كتابي حول الانتماءات. الشيء الواضح هو أن أوروبا أصبحت في مرحلة ما من التاريخ، فلنقل قبل حوالي ٥٠٠ عام، مركز التطور الاجتماعي على المستوى العالمي. وهذا لا يقتصر على التصنيع أو الفلسفة. بعضه كان من الأفضل وبعضه كان من الأفظع، ولكن كل ذلك لا يمكن إعادته. بالنسبة للحضارات الواقعة خارج هذا النطاق كان ذلك يعني، وما يزال حتى الآن، هو أن تطرح على نفسها السؤال : أين تقف هي من ذلك، ماذا يمكن أن نأخذه من الغرب، وكيف يمكن الاستمرار في الماضي دون التوقف عند أوروبا؟ كل هذه الأسئلة لم تلق أجوبة، وبشكل خاص في العالم العربي نفسه.

كريستيان ريدر : تناقش في كتاباتك المشاعر بالدونية التي تنتج عن مثل هذه الأوضاع غير المتوازنة، وكذلك ادعاءات أولئك الذين يعتقدون أن بعض السبل تشترط مقاومة النفوذ الأجنبي. إن مثل هذه الطروحات الرومانسية وتأثيرات انعكاسها تضعني في مواقف رؤية غربية لا أحيد عنها. يتم فهم الغرباء هنا بالدرجة الأولى كموافقة على الأحكام المسبقة. لقد أظهر إدوارد سعيد أن "المشرق" ما هو إلا تصور تم

تركيبه في أوروبا. فهل من المعقول بهذه المعرفة أن ننظر إلى الاختلافات بإيجابية، كما حاول "مستشرقون" غربيون متعاطفون؟ إذا ما كان الدخول "الرومانسي" غير مشروع، فماذا سيكون النقيض؟ هل سيكون دخولاً خبيثاً؟ بالمختصر: ماذا يفيد المرء اليوم النظر إلى الشرق الأوسط في طاقته وليس كمجرد منطقة مشاكل؟

أمين معلوف : بمثل هذا التأكيد لا يمكنني أن أجيب إلا بشكل غامض. إذا ما نظرنا إلى الأشياء بعقلانية صارمة فسرعان ما يتضح لنا أن كل الشروط المادية والروحية تقريباً، التي تتحكم بالحدث، هي ذات منشأ غربي. وهذا ما لا يمكن نكرانه ببساطة. لكن كان علينا أن نتساءل ما مدى ما نسحبه من هناك بالحقيقة، وماذا هناك - عدا ذلك - يحدد إنسانيتنا ويجعلنا شيئاً آخر بطريقة معينة، بناء على التاريخ ونوع ممارسة الحياة وعوالم الشعور؟ وكيف يمكن لذلك أن يجعلنا نقتصر على التفكير - بوجهات نظر مفتوحة - بالعالم وبأنفسنا؟ الجواب بديهي: مثل ذلك لا يمكن أن يحدث ببساطة ضمن إطار تحدده المشاركة في الإنجازات الأوروبية أو بالابتعاد عنها. هناك العديد من الأوجه لا يمكننا ببساطة إبرازها أو تنحيتها، وعلينا أيضاً أن نستوعب أن الكثير من التأثيرات، حيثما كان مصدرها كانت ذات أهمية بالنسبة لنا، وبذلك يجب البدء.

من وجهة النظر هذه فإن نوعاً من "الرومانسية" يكون هاماً عند النظر نحو الشرق أو نحو الغرب، كمستوى واحد للإطلاع على المعاني الدقيقة والمشاعر.

كريستيان ريدر : في الغرب يبدو وكأن البدائل الراديكالية لم تعد على بساط البحث، حتى الحركة المناهضة للعولمة تتصرف بشكل حضاري إلى حد كبير، وكأنها تسير وفق نظام. هنا ينتج لدينا الانطباع وكأن القدرة على النزوات العدوانية قد أصبحت تحت السيطرة، ولم يبق لها وجود بالشكل الخطر إلا في مكان ما خارج نطاق الطيف العادي، كنقد أصولي ساذج موجه إلى سير الأمور. ولكن أيضاً من الجانب العربي يتم

ما من شك بأن هناك حاجة متزايدة إلى الهوية كرد فعل على العولمة المتقدمة، ونتيجة للمخاوف الوجودية التي تأتي بتغيرات مفاجئة هناك أيضاً حاجة متزايدة إلى الروحانية.

في حقيقة الأمر تفعل المجتمعات الدينية فعل "القبائل العالمية" نتيجة تماسكها الانتمائي وهي "عالمية" لأنها بكل بساطة تتجاهل الحدود.

إن الانتماء إلى مجموعة دينية، يبقى من وجهة نظر معينة، الشكل الأكثر عالمية وانتشاراً للتجزؤ إلى دويلات، أمر ربما يقال انه "العالمية" الأكثر مباشرة وطبيعية والأقوى تجذراً.

أمين معلوف : انتماءات قاتلة، ٢٠٠٠ ، ص١١٥.

لم يكن للبشر قبلاً مثل هذا القدر من الأمور المشتركة، والمعارف والمرتكزات والصور والكلمات وأدوات العمل التي يتشاركون فيها، لكن ذلك يدفع هذا أو ذاك أكثر فأكثر للتأكيد على الاختلافات.

أمين معلوف : انتماءات قاتلة، ٢٠٠٠، ص٨٥.

إن أوروبا كرمز هي نفسها بصيغة مفتعلة مشوهة ومنكرة مرتبطة بكل مبادرات إثبات الشخصية.

هيلي بيجي : "الإسلام، الديموقراطية، الحداثة". إصدار : ي. هيلر/هـ. موسباشي ، ١٩٩٨، ص١٦١.

عندما استخدم العرب حظر النفط عام ١٩٧٣ كسلاح ضد الدول الصناعية، اتضح للعالم الغربي مدى اعتماده على نفط الشرق الأوسط، وعلى مدى عقد كانت هناك دلائل لإمكانية تدخل عسكري من جانب الولايات المتحدة، في حالة وقف توريد النفط مرة أخرى....

التركيز دائماً وأبداً على علاقة الأفكار الأصولية - الإسلامية مع النقد الأصولي الموجه للرأسمالية، والذي تم ترويجه قبلاً في الغرب، وبخاصة ضمن إطار حركة العالم الثالث. وعند مقارنة الشعارات تنتج لدينا عدة أشياء متشابهة، ليس فقط نتيجة التشابهات بين التصورات الشيوعية وتلك شبه الدينية. وإذا لم يطرح المرء مسائل حقوق الإنسان والديمقراطية في بلده، يبقى البلد الغريب أكثر "صعوبة للفهم"، كما أن تصدير المعارضة والثورة هو تجربة غربية شديدة الخصوصية. هل ترى مثل هذه العلاقات أم أن للراديكالية الحالية ذات الطابع الإسلامي جذور مختلفة كل الاختلاف؟

أمين معلوف : إن ما يبدو على شكل معارضة دينية ليس مجرد حركة دينية. لنأخذ إيران مثلاً. فالتطورات هناك لها بالتأكيد، إذا ما نظرنا إلى الحقائق، ملامح كثيرة لحركة عالم ثالث. ولمثل هذه التصورات تقوم روابط أقوى بكثير منها من الروابط مع تاريخ الإسلام، حيث لا يوجد معه إلا القليل من الأشياء المشتركة، حتى ولو أن الجهة الرسمية تؤكد على المكونات الميتافيزيقية.

كريستيان ريدر : من المعروف أن كلمة "أصولية" قد صيغت في الولايات المتحدة ضمن نطاق مساعي التجديد البروتستانتية، ثم أصبحت شيئاً فشيئاً تستخدم للدلالة على المواقف غير الواقعية والدوغمائية. بذلك يتم الإجحاف بحق النقاش حول الشيء الأساسي، من وضع الشمال - جنوب إلى نطاق كوني غير متوازن حتى حقوق الإنسان وركود عالمي للعلاقات الديمقراطية. إن التناول المنعتق من الأجواء ذات الطابع الديني أو الرجعي لمسائل أصولية سيكون في عداد ذلك، في مجال نقاش عالمي مفتوح - أم أن ذلك يعتبر مرة أخرى "غير واقعي"؟

أمين معلوف : في مناطق بعيدة من العالم يشعر الناس بأنهم منزعجون لأبعد الحدود، عندما يتعلق الأمر بالغرب، وليس دائماً لأسباب وجيهة. الكثير منهم لا يستطيع أن يرضى بالتطورات التي تعتبر حسب وجهة نظري تقدماً بالنسبة للإنسانية. علينا أن لا ننسى أن سبب الحركات في أفغانستان كان إلزامية التعليم للفتيات. وإذا ما نظرنا بشكل عام فإن النقد يتبع خطوط نقاشات ما بعد استعمارية، مع العالم الثالث باعتباره مجالاً مركزياً للمشكلة. هناك ردات فعل في كل مجتمع على التغيرات. ان نفي الشيء أو كبته على المدى الطويل يكون دائماً أقرب إلى كونه غير منتج. ومن الخطأ أن نربط ذلك دائماً بالدين باعتباره المرجع الرئيسي. بذلك يصرح المراقبون أكثر من مشروع ملاحظتهم. ولتوضيح ذلك : فأنا مقتنع كل القناعة بأن الأديان لا يمكنها أن تقدم أجوبة على ما ينبغي علينا أن ننجزه في المستقبل القريب. ولا أعتقد أن العالم الإسلامي حالياً على أي مستوى يملك القدرة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو الأخلاقي على تقديم بدائل عن الحضارة الغربية السائدة. إن الإصغاء إلى النقاد هو دائماً أمر هام، وبخاصة عندما يقولون أنكم تعتقدون أنكم تمثلون مجمل العالم، وأن بإمكانكم حل جميع المشاكل والعمل دائماً على مستوى أخلاقي رفيع، لكن ذلك في الواقع ليس صحيحاً. فأنا لا أرى، ولا في أي مكان، قوى يمكنها أن تقدم بدائل صحيحة.

كريستيان ريدر : وللدخول في موقف آخر أود التطرق إلى الفلسطيني هشام شرابي الذي قام بالتدريس مطولاً في الولايات المتحدة. فبالنسبة له يتعلق تطور حقيقي في المنطقة ببعض النقاط التقليدية. أولاً يجب خلق أطر للمجتمعات العلمانية الحديثة، ومن ثم يتعلق الأمر بثلاثة مواضيع: السلطة والنساء والفقر. فهل يمكنك أن توافق على واحدة من هذه "التبسيطات"؟.

إنها تنطبق على كل تجربة سفر واعية. بالنسبة للقادم من الغرب يسترعي انتباهه أول الأمر الفقر ووضع المرأة، وإلى حد بعيد - لنقل باحتراس - الوضع غير المستقر بخصوص حقوق الإنسان والديمقراطية.

أمين معلوف : إن إمكانات النساء هي معيار أساسي في كل مكان. في البلدان التي نتحدث عنها تم التحجيم التدريجي

لما تستطيع النساء فعله أو ما يسمح لها به، كردة فعل على الغرب. وهذا يقودنا إلى طفولية المجتمع. لكن التعميم لا يقدم الكثير. فأفغانستان ليست إيران، وإيران ليست مصر، ومصر ليست لبنان. فهناك فروقات كبيرة. وإذا ما نظرنا بشكل كلي يتضح أن الدور المنوط بالنساء غير مقبول كلياً في هذا الجزء من العالم. وهذا جزء أساسي من المشكلة وسبب رئيسي للتخلف ومسألة مركزية للحرية والديمقراطية. ببساطة ليس وارداً أن تبقى النساء منعزلات ويعني أيضاً بأنه لا يمكن أن تكون هناك مفاهيم ناتجة عن هذه الاتجاهات يمكن أخذها أو تبنّيها من أي مكان.

كريستيان ريدر : عند الإقامة الطويلة تتاح الفرصة - أحياناً بشكل عفوي - لإدراك النوعيات الكامنة - تتلقى النوعيات المخبأة فرصة - وأحياناً بصورة عفوية إمكانية إدراكها والمستوى العالي نسبياً من التضامن وكرم الضيافة، وقانون الطلاق الأكثر سهولة بكثير، وإيقاع الحياة المختلف. في الغرب يعتبر كل إنسان مفقوداً بدون الضمان الاجتماعي والحيطة الذاتية.

أمين معلوف : مثل أنماط الرؤية هذه يمكن أن تكون مفيدة لملاحظة نقدية للإنجازات الحديثة. فلنأخذ مثلاً موضوع الأمن الاجتماعي. فبدون أنظمة الضمان التي قامت في الغرب كان يجب أن تكون هناك أنظمة تضامن كما هي موجودة في أمكنة أخرى. ولكن من ذا الذي يبادل الضمان الاجتماعي الذي تحقق بخطوة إلى الوراء إلى مثل هذه التراكيب التقليدية؟ لا أحد.

بمقارنة كلا هذين النظامين يدرك المرء أن أوروبا قد حلت ذلك تقنياً بصورة أفضل. لكن معاملة كبار السن والفقراء، وعدم وجود التضامن لا يحدد طريقاً علينا جميعاً أن نسلكه. وكان على نماذج النوعيات أن تقودنا دائماً إلى التفكير بروية.

كريستيان ريدر : هل هي من نتائج التراكيب البطريركية - أو أية أنظمة غير مرنة - أن الجماعات الحاكمة، والفئات

ألبرت حوراني : تاريخ الشعوب العربية، ١٩٩١/ ٢٠٠١ ، ص٥٠٥.

مثل الثوريين الماركسيين المسلمين في إيران الذين ظنوا بأن ماركسية بغلاف إسلامي فقط يمكن أن تصبح مقبولة لدى الرجل الإيراني في الشارع. لذلك حاول العديد من المثقفين الراديكاليين العرب في السبعينات أن يعيدوا تحديد نظريات ثورية، بما فيها الشيوعية، في سياق إسلامي. والمثال على ذلك يقدمه حسين مروّة، وهو المثقف الشيعي الشيوعي الذي "عاد" إلى الإسلام دون، أن يتخلى عن قناعاته الماركسية. قُتل في بيروت عام ١٩٨٣، ربما على يد أعضاء المجموعة الشيعية "حزب الله".

هشام شرابي : الحداثة والتجديد الإسلامي في : "الإسلام، الديموقراطية، الحداثة". إصدار :ي. هيلر/هـ موسباشي، ١٩٩٨، ص٥٢.

بالمفهوم الشكلي يعود أصل اصطلاح الأصولية إلى البروتستانتية الأميريكية مع أنه يطبق من قبل مؤلفين مسلمين وغربيين بنفس القدر على الإسلام.

بسام طيبي : الأصولية الإسلامية، العلوم والتقنية الحديثة . ١٩٩٣، ص٣١.

المهمة الأساسية للفكر العربي يجب أن تكون الآن هدم البنى الموجودة، بهدف وضع حد نهائي لها أو على الأقل الخروج منها.

أدونيس (علي أحمد سعيد): الثقافة والديموقراطية. ٢٠٠١، ص٨٥.

أدى النمو الاقتصادي والتحضر الحديث إلى استقطاب أقوى وأوضح للمجتمع. وقد استفادت بالدرجة الأولى من النمو كل من الفئة الحاكمة والضباط وكبار المسؤولين والتقنيين ورجال الأعمال في مجال البناء وصناعة المواد الاستهلاكية وفي مجال الاستيراد

القادرة مادياً، والمثقفين لا يطّلعون بدور أكثر صدامية عند إجراء التغيرات الضرورية، عند خلق مؤسسات، وتعليم أفضل، وتبادل؟ بنظرة على الاهتمام القليل من كلا الجانبين بالتوصيل العادي، بالترجمات، يمكن الحديث عما يشبه الرفض المقصود للثقافات المجاورة، التي لا يتم اختراقها إلا أحياناً وبشكل رمزي.

أمين معلوف : بذلك نلامس مسائل أساسية جداً للإنتاج الثقافي. والغرب أيضاً ليس مفتوحاً بالفعل لهذه النوعيات التي نعثر عليها في مثل هذه المناطق من العالم. ومن جهة ثانية يتضح أن الإبداع الثقافي متعلق بدرجات الحرية المتوفرة. يجد المتخصصون في تاريخ الشرق الأوسط أنفسهم في أوروبا أكثر منه في المنطقة نفسها. فالبحث الجاد يحتاج إلى حرية سياسية وعلاقات ومؤسسات. بذلك نكون في صدد معالم مشكلة العمل الثقافي. هناك نقص في الحماس والأولويات، وقليلون هم المقتنعون بأن للشؤون الثقافية أهمية اجتماعية.

كريستيان ريدر : لكن الملايين تقدّر أم كلثوم وهو قلما حظيت به مطربة أخرى. فجنازتها كانت دراما عربية شاملة. ولا يمكن لأحد أن يحول دون الانتشار العالمي للموسيقى.

أمين معلوف : لكن الناس لا يرون في ذلك ثقافة، فهو جزء من حياتهم اليومية، ومن برامج التلفزيون. فرنسا تنقل دائماً وأبداً أمثلة كظاهرة، مثل موسيقى من الجزائر. البعض من ذلك يصبح جزءاً من المشهد العالمي، لكن دائماً كنتيجة لمثل هذا النقل. أما في الأدب فلم يستطع إلا القليل من المنطقة العربية أن يفرض نفسه عالمياً أو على الأقل أن يُعرف. لكن من الخطأ الزعم أن هناك الكثير من المواهب على شاكلة "غارسيا ماركيز" غير مكتشف. وعدد القرّاء هو صغير جداً بالمقارنة. لحد الآن لا ينظر إلى الأدب كفن عظيم. ففي معارض الكتب في العالم العربي تحقق الكتب الدينية أفضل المبيعات، تليها بعض الكتب السياسية وقليل من الشعر وأخيراً بعض الروايات. فقلما هناك من يحسن قراءة الروايات. ولا يستطيع الكاتب الروائي أن يعيش من كتابتها.

كريستيان ريدر : هل نُشرت كتبك - الصادرة باللغة الفرنسية - بالعربية أيضاً؟

أمين معلوف: نعم. بعضها يمكن الحصول عليه، ولكن يثبت لي دائماً مدى ضعف الاهتمام بالروايات، وهذا يتعلق طبعاً بالنواقص التركيبية. فعلاقاتنا مع الماضي ومع المستقبل، ومع الغرب وحتى مع أنفسنا، قلما يتناولها البحث. من نحن؟ وإلى أين نسير؟ هل لنا وجهة سير معينة؟ قليلون هم الذين يطرحون مثل هذه الأسئلة. المراقبون من الخارج هم في هذا المجال أكثر هجومية. إنهم يبحثون عن نوايانا، عن أهدافنا، ولكن في حقيقتنا لا توجد أية نوايا ولا أية اتجاهات.

كريستيان ريدر : إن ما هو متيسر لنا الإطلاع عليه من ترجمات أدبية - خاصة من أدب النساء - من الدول العربية يوضح الصراعات اليومية والضغط الذي تتعرض له النساء وعدم إمكانية النقاش المفتوح في الخارج. آسيا جابر من الجزائر هي أحد هذه الأصوات، نوال السعداوي من مصر، حنان عشراوي أو سحر خليفة من فلسطين. فمعظمهن قد اتخذت تجاههن مواقف عدائية أو أنهن يعشن في مكان ما منذ وقت طويل مثل ف. س. نيبول أو سلمان رشدي كممثلين لأدب عالمي يدب الفوضى في أساليب السلوك الثقافي. إن الكوسمو بوليتيكية في الأمر لها أيضاً وجوه إجبارية، إذا لم يبقَ من الحضرية المنفتحة بالفعل، بروح التقاليد السابقة سوى القليل.

أمين معلوف : الكثيرون يأملون أن يوجد حديثاً مثل ذلك، لكننا بالتأكيد لا نواجه مرحلة ترحب بمثل ذلك. لقد كانت هناك مثل هذه الثقافات المتنوعة، ثم جاءت النكسة. كانت هناك مراحل تجديد لكنها بشكل عام تعثرت.

كريستيان ريدر : لا جدال هنا حول التأثيرات الاستعمارية

في مصر خلال القرن التاسع عشر، في مسألة تقسيم الشرق الأوسط وفي إسقاط حركة مصدق في إيران وحركة القومية العربية التي نادى بها جمال عبد الناصر، وفي أزمات النفط المتنوعة. إنك تركز بشدة في كتاباتك أيضاً على نقاط الضعف التركيبية المصنوعة محلياً.

أمين معلوف : على المرء أن يرى كلا الجانبين، وقدر الإمكان كل الأسباب الهامة للإضراب الدائم. فالذنب لا يقع على "العدو" فقط، لأن للثقوب الموجودة في وعينا الذاتي وفي تفكيرنا بتقاسيمه الصغيرة أيضاً دور في ذلك. فالناس قلما يسألون عما يحدث حولهم. أما القلة التي تفعل ذلك أو فعلت، كان ينظر إليها باعتبارها غير مرغوب فيها، فتصمت أو تهاجر. مثلاً لم يحدث أبداً تحول واسع في الوعي تصبح بالنسبة له الأسئلة عن منزلة الدين وعن المؤسسات السياسية الضرورية والعلاقات الدولية، قضايا بديهية. ولم تؤدِ كل النقاشات حول ذلك إلى تحولات تركيبية مناسبة، وعندما لا يرى الناس أية فرص....

كريستيان ريدر : على مدى قرون كانت الكنيسة في الغرب عامل قوة أقوى بكثير مما كانت عليه المؤسسات الدينية في المجتمعات الإسلامية. عملياً كان من المفروض أن تختفي كافة الديانات الأخرى وتفرعاتها.

أمين معلوف : لكن في النهاية كان هناك ما يكفي من الناس للوقوف في وجه مثل هذه القوى، وهذا ما جعل أشكالاً أخرى للتوازن ممكنة. وكان يمكن للنقد والنقد الذاتي أن يصبحا نوعية غربية.

كريستيان ريدر : إن الحجج "النقدية" الحقيقية أصبحت فيما بعد مجرد قضية أقليات في نسيج العلاقات خارج التراكيب المعهودة. مثلاً في المشاريع غير الحكومية ما زالت هناك إمكانية، وقد عزز بيير بورديو من مثل هذا التفكير. فالأوجه الرمزية هنا والتغيرات الفعالة حقاً تتعلق بمستويات شديدة الاختلاف. والفعل ضمن منظمات يمتص الطاقات. فهل

والتصدير أو شركاء في الشركات متعددة الجنسية.
ألبرت حوراني : تاريخ الشعوب العربية ١٩٩١/ ٢٠٠١ ، ص٥٢٦ وما يليها.

.... إذا لم يحترم ذلك الذي أتعلم لغته، لغتي، فإن التحدث بلغته لن يبقى طويلاً مؤشراً على الانفتاح، بل سيصبح نوعاً من الانقياد والخضوع
أمين معلوف : انتماءات قاتلة، ٢٠٠٠، ص٤٣.

ما أكاد أعيد تجهيز نفسي وأتعمق وأتجذر، حتى تنشأ في الرغبة الملحّة للانصراف.
آسيا جابر : وهران. ليلة جزائرية، ١٩٩٧، ص٤٢.

... تم نهب جزء من موارد مصر. بعضها مالي وبعضها الآخر بشري. ولم يقتصر ذلك على الملاك اليونانيين والإيطاليين والفرنسيين والمالطيين والبريطانيين بالآلاف، بل كل الأقليات (...) أحياء بكاملها في الإسكندرية حزمت حقائبها. كان النسيج الحريري الذي تراكم طبقة فوق أخرى في هذه المدينة، من كل الألوان هشاً. حقيقة من لحم وحجر، بوتقة أخذت كل حنيننا إلى الانفتاح والاختلاط، الذي تطور تسامحنا ضمنه. مجموعة من الناس الصغار أوقفت فجأة مذعورة حزم حقائبها. كان من بينهم الكثير من اليهود الذين طردوا. عاشوا فوق هذه الأرض منذ بداية الأزمنة. كانوا مصريين أيضاً مثلما كنت...
سليم نسيب : نجمة الشرق، ١٩٩٤/١٩٩٩. ص١٨٩.

بالنسبة لأمم وثقافات أخرى لم يكن الأمر يتعلق بأكثر من الاكتشاف بأن الغرب كان متطوراً، بينما هم لم يبرحوا مكانهم. أما بالنسبة للعرب فقد كان هناك

تعتقدون بقوة التغيير لدى مثل هذه التراكيب غير الرسمية، بمفهوم استراتيجيات المجتمع المدني العالمي؟

أمين معلوف : بصراحة، لا أرى الكثير من التغييرات الإيجابية قادرة على صياغة تراكيب يمكنها أن تؤثر على ذلك. فالحكومات مستمرة على طرقها المعتادة. ومن وجهة نظر عالمية يبدو أن مثل هذه المجموعات تعمل بعزلة تامة وغالباً ما تتبنى ببساطة مسائل من أنحاء أخرى من العالم. وإذا ما نظرنا على المدى الطويل فإن العلاقات بين المؤسسات، كالجامعات مثلاً، أكثر أهمية. وهذا يمكن أن يسفر عن أوضاع عمل حقيقية. آلاف من الدارسين والأساتذة عليهم أن يسافروا ويلتقوا ويتناقشوا ويحلّوا قضايا محددة. وهذا ما يمكن أن يكون خميرة لقضايا أخرى. وإذا ما تلاقت مجرد مجموعات أياً كانت، دون برامج عمل مشتركة، فإن ذلك لن يسفر إلا عن حقيقة ذاتية مجزوءة.

كريستيان ريدر : لكن مثل هذا التبادل المنسحب على العمل سيصبح أكثر صعوبة، بخلاف كل ما يتم الإعلان عنه. ما من أحد يشعر بأنه مسؤول عن الدفع. فإنتاج شيء تنفيذي موّحد لا يحتاج إلى مبادرات خاصة. ومن جهة أخرى هناك في هارفارد دارسون آسيويون وهم من أبرز المجموعات، وخبراء الكمبيوتر الهنود مطلوبون في كل مكان. ولكن التبادل ما يزال يلعب دوراً أقل. هل سيكون هناك أثر ديناميكي عندما تقدم أوروبا منحاً دراسية لآلاف الطلاب والطالبات من أصل غير أوروبي لكي تدب الحركة في المجتمعات التقليدية التي غالباً ما تكون عسكرية أو شرطوية، أو تلك ذات الطابع الفوضوي؟ هل ما زلنا نعتقد بمثل هذه القدرات الناتجة عن التربية والتعليم؟

أمين معلوف : بالتأكيد بإمكان أوروبا أن تقدم تعليماً مناسباً للكثيرين. ولكن مَنْ ينهي دراسته سوف يحاول البقاء هناك ولفترة طويلة، طالما لا يعثر على إمكانات أفضل في بلده. ولذلك يتجه تفكيري باتجاه آخر. في لبنان مثلاً هناك الجامعة الأمريكية ذات الشهرة. إنها مثال جيد على ما يدور في خلدي. فوجود مؤسسات ذات شهرة عالمية في مثل تلك البلدان تصيغ أجيالاً، تشكل تقاليد أكاديمية ونوعيات جيدة يمكن أن تكون مراكز يقظة. بالتأكيد هناك من يعارض ذلك ويرى فيها مجرد نفوذ أجنبي، أي تسلل كولونيالي جديد أمريكي وإنكليزي وفرنسي. وبدون تقييم للمؤسسات يتجاوز ذلك باتجاه إقامة شبكات دولية سوف لن يسوّى الأمر. يجب أن تُقام مؤسسات جديدة. فالمستويات في كل هذه البلدان منخفضة جداً، ومعظم طلابها لا يتعلمون عملياً شيئاً، ولا يجدون عملاً ولا تتوفر تراكيب يمكنها أن توفر لهم حياة مدنية حافزة.

كريستيان ريدر : ولكنك وجدت مثل هذه التراكيب في المنفى، كيف كان استعدادك لذلك؟ وكيف تشكل تفكيرك الشخصي؟ وأية مراجع لعبت في ذلك الدور الهام؟.

أمين معلوف : من وجهة النظر هذه فأنا توفيقي جداً. فمحيطي العائلي كان مطبوعاً بأشخاص انشغلوا بصورة مكثفة بالأدب العربي. وهناك أمثلة من الأدب العالمي تمت مناقشتها، وسمعت على الدوام شعراً عربياً. كان والدي يعلّم الأدب المقارن ويتحدث دائماً عن المؤلفين الذين يفضلهم، ويقدر رابندارانات طاغور بشكل خاص. بدأت أقرأ الروايات المترجمة إلى اللغة العربية مثل أعمال ديكنز وتوين وسويفتن وألكساندر دوما. واعتباراً من سن الرابعة عشرة أصبحت معظم قراءاتي باللغة الفرنسية. كان "كامو" واحداً من الأدباء المفضلين عندي، وكذلك بلزاك. أحياناً أقرأ أيضاً أعمال الكتّاب الإنكليز والأمريكان بلغتهم. وكما سبق أن قلت، فأنا متقلب جداً في هذا المجال وأهتم بالعديد من المجالات والمناطق. تعتبر القصص القصيرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي، وأعتقد بأنني أعرف بعض الكتب من كل جزء من العالم، دون إصدار أحكام عليها –هذا أدب وهذا لا – فروعة الأدب أنه يشارك فيه ناس من مختلف الأجناس بمختلف الخلفيات وبشتى أنواع الخبرات. إن أدبي الخاص هو أيضاً نتاج حياتي وبيئتي وبالدرجة الأولى قراءاتي. ويشكل التطور بالنسبة لي موضوعاً

رئيسياً، منه أستقي اهتمامي بالتاريخ والتنبؤ. ولمؤلفي كتب الخيال مثل هـ. ج. ويلز، أورويل وعظيموف أهمية خاصة عندي. مبعث ذلك هو أنني أعمل كثيراً بمواضيع تاريخية، وأعي دائماً الرابط بين مثل هذه المستويات. إنها فكرة المقارنة والعلاقات بين اليوم والأمس والغد.

كريستيان ريدر: أمام خلفية تجارب فيينا يعتبر يوزيف روت كاتباً هاماً لمثل هذه المعالجات التاريخية. أو شتيفان تسفايج. وبعد ذلك أصبحت الشذرات تحتل الصدارة، حتى الحرب العالمية الأخيرة لم تصبح غالباً موضوعاً للعمل الأدبي، كما هو الحال بالنسبة للمواضيع التاريخية بشكل عام.

أمين معلوف : هناك بالتأكيد اختلافات كبيرة بين منطقة وأخرى. وتتلخص الانطباعات بشكل آخر، يعيش المرء ويكتب بشكل مميز جيداً، متفاعلاً مع محيطه. أنا لا أعرف النمسا جيداً، ولكن يمكن أن أتصور أن تحطم النظام الملكي وصدمة الحرب العالمية الثانية كان لها أثر مباشر. وإذا ما نظرنا إلى النتاجات الأدبية من مناطق بعيدة، من مصر مثلاً أو من كولومبيا، لفقدت الظروف المحلية من وزنها. إن الجوانب العامة للأدب تبنى على هذه التجارب المتباينة. فكتاب شتيفان تسفايج بعنوان "يوزيف فوشيه" مثلاً تأثرت به كثيراً في صباي. ربما لم يكن أفضل مؤلفاته، لكن من وجهة نظري كان مهماً جداً بالنسبة لي : لقد عرض كيف يمكن لوجهات النظر أن تغير من الصور المقولبة مسبقاً. كان "فوشيه" وزيراً للشرطة في عهد الثورة ثم عند نابليون، شخصية مكروهة إلى أبعد الحدود. فبدون الدفاع عنه يُجرد هذا الانطباع من نموذجه الأصلي.

إذن فإن كتابي الأول حول الحملات الصليبية من وجهة نظر عربية هو إلى حد ما متأثر بـ" شتيفان تسفايج".

كريستيان ريدر : ينسحب علي وعلى أبناء جيلي أيضاً الصوت الأول الذي قرّبني من بلدان الجانب الآخر من البحر

سؤال آخر مقترن بالسؤال : لماذا تطور الغرب؟ ألا وهو : لماذا نحن العرب المسلمين متخلفون؟ في الحالات الأخرى - في معظمها على الأقل - ظل السؤال دراماتيكياً. أما في الحالة العربية فقد كان يميل منذ البداية إلى التراجيدية. لأنه بينما أمم وثقافات أخرى وضعت تخلفها مع عدم وجود التطور على قدم المساواة، رأى العرب في تخلفهم تراجعاً، هزيمة. وللسبب نفسه تصوروا صعودهم كنهضة، كبعث حقيقي جديد.

جورج طرابيشي : "الجرح الأنثروبولوجي في علاقتنا مع الغرب" في الإسلام، الديموقراطية ، والحداثة. إصدار : ي. هيلر/هـ. موسباشي، ١٩٩٨، ص٧٣.

وأنا أعتقد أننا نحتاج إلى وقت طويل جداً، ربما عدة أجيال، قبل أن يتأكد لنا أن سيناريوهات العنف والاستبداد والاضطهاد التي تطالعنا في الجزائر وأفغانستان وأمكنة أخرى، ليست أوثق ارتباطاً بالإسلام، منه من أكوام دواوين التفتيش أو الملكية المقدسة، بالمسيحية". من تخدم الإشادة بالتسامح في الماضي، إذا ما كان الحاضر يبدو بشكل آخر؟ هل سيواجهني البعض وسأوافقهم بمعنى من المعاني ...

أمين معلوف : انتماءات قاتلة، ٢٠٠٠، ص٦٣.

لا. أنا لا ألقي باللوم على سادتنا المستعمرين. على أية حال ليس في صفقة واحدة. ربما سلكنا نفس سلوكهم، لو كنا مكانهم وربما أكثر قسوة. من يعلم؟ لكن يبقى للأسف أننا لم نستطع يوماً أن نكتب تاريخنا بأيدينا.

مانو دياك : مأساة الطوارق، ١٩٩٦، ص٢١.

مشاكل مرعبة، مناظر رائعة تنيرها شمس قوية أشرقت عليهم مرة واحدة وإلى الأبد. في المشرق.

صلاح ستيتية : "رحلة بدون غرفة ذات إطلالة" في : الإسلام، الديموقراطية، الحداثة. إصدار : ي. هيلر/هـ. موسباشي، ١٩٩٨.

المتوسط وهو "كامو" مساجلات "كامو" الأدبية - أدركتُ سارتر من إعادة قراءته مجدداً - إجمالا : أصَر "كامو" على أنه فرنسي وجزائري، بينما طالب سارتر بأن على الجميع أن يشعروا كالجزائريين. أن تكون إلى جانب الجماهير الثائرة، كانت مسألة ملزمة. من وجهة النظر الحالية يبدو الموقف المتوازن الذي ينشد التعادل الذي اتخذه "كامو" أنه الأسلم. لكن كلتا وجهتي النظر لم تتحققا.

أمين معلوف : اعتبرت تعابير "كامو" آنذاك تحريفية جداً. لم يُفهم. الكثير من الناس لم يفهموه في هذه النقطة حتى الآن. كان يطالب بالعدالة للجزائريين ضد العنف الذي تمارسه فرنسا. وفي الوقت نفسه اعترف بأنه يفكر بوالدته التي كانت تعيش في الجزائر كفرنسية. بهذا الاتجاه نحو الأمور الشخصية لامس حقيقة بعيدة الأعماق، كيف يجب أن أتخذ قراري؟ هل يتوجب عليَ أن أقرر؟ وبمخاطبته لمثل تلك المشاعر والمواقف غير المحددة دخلت الناحية الفردية بتناقض مع المفاهيم العامة للعدالة. وإذا ما نظرنا إلى ما حدث في الجزائر، فقد ناقش بعمق كبير. كان الاعتقاد بإمكانية تغيير الأشياء بالتعاون مع قوميين ضيقي الأفق خطأ، دون الاهتمام بمعاناة الملايين، لمجرد خدمة ما يعتبر مجرى التاريخ. هناك خطأ ما في ثورة، إذا ما ساءت أحوال أمّ كأم "كامو".

فثورة حقة ممكن أن ندعمها، يجب أن تكون في وضع تستطيع فيه أن تتناول مثل هذه المشاعر. بالنسبة لمطالبة "كامو" هناك شيء، يشمل كافة الصراعات، أتعاطف معها كلياً. هناك دائماً الكثير من المواقف للنظر إلى الحقيقة . إن واجبنا كمراقبين، كمعاصرين هو أن لا نبسّط، وأن لا نستغرق في فن الإنشاء. فالنية بعدم رؤية الأشياء بوضوح لها ثمنها، سواء في مجال العنصرية أو القومية أو الثورات....

كريستيان ريدر : مدخل آخر إلى "كامو" : وصفه للنور في شمال أفريقيا، فهو نفسه لم يكن يعرف سوى المناطق الساحلية. أصبح سانت أكسوبري كطيار صوتاً "لعظمة" الصحراء. إنني أشاطره التأكيد على هذه المناظر الطبيعية وهذه المجالات والأبعاد منذ رحلاتي المطولة في الصحارى وبقية الصحاري. إن ذكريات ذلك ترافقني، ولكن ليس بالتأكيد لأن المرء مطبوع بالتربية الدينية، بأن الديانات الكبرى جاءت من الصحراء التي هي مكان أسطوري لهذا الشيء وذاك. هل هذا المركب مهم بالنسبة لك بصورة ما، باعتبارك نشأت في جوار مباشر مع مثل تلك الأصقاع؟

أمين معلوف : عشنا في لبنان، في منطقة جبلية خصبة قريبة من البحر. وكان هناك ومنذ القديم الموقف الذي يميل إلى النظر للمناطق المجاورة بصحاريها، كجيرة غير مرغوبة. فمنذ أقدم العصور ظهر أناس من صحاري وبوادي سورية وشبه الجزيرة العربية وأواسط آسيا غالباً كمدمرين للحضارة. وقبلهم كان مؤسسو قرطاج الفينيقيون يخشون من سكان الصحاري في داخل البلاد. أنماط التفكير هذه كانت دائمة حاضرة وما تزال. هناك مسافة يجب الاحتفاظ بها.

كريستيان ريدر : يُفهم من ذلك وكأن كل الأساطير حول أبراهام وموسى ويوحنا المعمدان، حتى المسيح والنساك القدامى قد تم قبولهم في الغرب بأثر شديد يفوق تقبل أولئك الذين يعيشون في بيئة المشهد الحقيقي.

أمين معلوف : كانت الصحراء دائما تعتبر مكاناً أسطورياً. لنأخذ الإسلام مثلاً. فقد جاء من الصحراء ومن المدينة. وهو كدين قام على يد الحضر وليس على يد البدو. كانت إحدى أفكاره هي الخروج من الصحراء إلى الأرض الخضراء والمدن الواقعة في الجانب الآخر منه. فأسطورية الصحراء لا وجود لها إلا عندما لا يكون المرء في الصحراء.

كريستيان ريدر : لكن ليس فقط النصوص القديمة هي التي تنقل مثل هذه التصورات. فكل مراحل الاستشراق الغربي بتوقه إلى التجارب الثقافية غير الأوروبية كانت مطبوعة بهذه التصورات، من "حملة" نابليون على مصر حتى لورنس العرب الذي يعتبر بالإضافة إلى بورتون ودوغتي وتيسيغر في عداد "قديسي الصحراء" الإنكليز المعاصرين، وأصبح باول بوليز

شخصية وسيطة. إن زيارة الحج التي قام بها نيكولاي غوغول إلى فلسطين قد تكون مثالاً قديماً، أو رحلة مارك توين إلى المشرق. كما يعتبر ديلاكروا أول رسام قام برحلة إلى شمال أفريقيا، ثم جاء بعدهم "ماتيس" و"كاندينسكي" و"كليه" و"ماكه" و"كوربوسيه" بحثاً عن نور الصحراء، مستلهمين الحلول الشكلية الموجودة في ظل مثل هذه الظروف. إذن فالتأثيرات على الحداثة الأوروبية واضحة. وفي تلك الفترة تم أيضاً اكتشاف الزخرفة الإسلامية حديثاً للغرب لتجريدها كتقليد. لكن لم يعرف كم من أعمال النقل نتجت عن ذلك. والعكس أيضاً، فاكتشاف أوروبا من هذه الناحية قلما كان محط اهتمام.

أمين معلوف : إن اقتحام ما هو أوروبي تم على طريقة الموجات، وقلما وجد الشيء المشترك بين الجانبين فرصاً. كان من المفروض النظر إلى كل واحدة من هذه التجارب الموثقة على حده وبدقة. فمقارنة الأشكال التقليدية للتجريد مع تقاليد الحداثة على سبيل المثال يمكن أن تثير سوء فهم. إنني أعول على النتائج المتشابهة والصادرة عن أساليب التفكير المختلفة، فليس هناك أي مفهوم واضح عن مراحل المعارضة الموجهة ضد العروض التشكيلية للإنسان لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين. ولكن التصوير الفوتوغرافي قد غير في الواقع الشيء الكثير، لأنه كانت هناك حاجة ملحة في الفن، بعد فقدان القطب الواحد، للبحث عن مفاهيم جديدة لتمثيل الواقع.

كريستيان ريدر : يمكن للتشابهات أيضاً أن تكون مصيدة. فمن النظرة الأولى يمكن للكثير من المدن التقليدية حول البحر المتوسط أن تعتبر عربية، كما هو الأمر مجدداً في الحداثة، إذ تبدو الأبنية وكأنها تعود لثقافة موحدة، سواء أكان ذلك في البندقية أم سانتورين أو طنجة. فالسطوح العليا والتراكيب يمكن أن تكون متشابهة جداً، ولكن المفاهيم القابعة خلفها تحكي العكس، وهذه حالة خاصة جداً.

أمين معلوف : إن الجلابية والحجاب التي يرى فيهما سأدافع عن نفسي دائماً، الشيء الذي سأقي نفسي منه دائماً هو التصور الذي يضع ديانة - مسيحية - من جهة، تقدم منذ القديم الحداثة والحرية والتسامح والديموقراطية. ومن جهة أخرى ديانة - إسلامية - استسلمت منذ بدايتها للاستبداد والغموض. إن ذلك خطأ وخطير ويجرد جزءاً كبيراً من الإنسانية من أية آمال مستقبلية.

أمين معلوف : انتماءات قاتلة، ٢٠٠٠، ص٥٢.

إن المستقبل المقترن دائماً بالصحراء ليس إلا تحول للماضي : فذلك الذي سنراه غداً ليس إلا شكلاً آخر لما رأيناه بالأمس.

أدونيس (علي أحمد سعيد) : "قصيدة وصحراء"، ١٩٩٦، ص٨٦.

إن البلدان الإسلامية مرتبط بعضها ببعض من خلال سلوك اجتماعي مشترك وموقف متشابه تجاه المسائل الاقتصادية أكثر من ارتباطها من خلال مصير سياسي مشترك.

تم تنظيم التجارة والتقاليد التجارية وقانونها منذ بداية الحقبة الإسلامية حسب أسس تجارية، أي رأسمالية - ليبرالية.

محمد شرابي : البازار. مركز المدينة التقليدي في الشرق الأوسط ومؤسساته التجارية. ١٩٨٥، ص٣٠ وما يليها.

من أصل ٨١ مركزا تاريخيا حضريا ومدينة تقرر أن تكون تراثاً عالميا أقرته اليونسكو، هناك ١٨ منها تقع في شمال أفريقيا الإسلامي وجنوب غرب آسيا :

حلب - الجزائر - دمشق - فاس - قدامس - أصفهان - استنبول - القدس - القاهرة - القيروان - حيفا - مراكش - صنعاء - شيبام - سوسة - تونس - صور - زبيد

أويغن فيرت : المدينة الشرقية في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، ٢٠٠٠، ص٩٢.

البعض رمزاً صارخاً للمسلمين، يمثلان كيف كان يبدو الرومان والمسيحيون القدماء.

كريستيان ريدر : بالمقارنة مع السياح الذين يرتدون لباساً مثيراً للانتباه، يعطي ذلك صورة الانطباع بالتطور، وهذا ما يمكن ملاحظته في كل بازار. حتى نظام البازار نفسه، أي السوق باعتباره منطقة لحركة العلاقات التجارية، تم قبوله بأشكال مبسطة، مثل السوبر ماركت وصالات التسوق، والمناطق المخصصة للمشاة. ومن أجل التعويض يحتاج هو نفسه إلى جو البازار في المتاجر الكبرى، حتى لا تعطي عوالم الحوادث المثيرة ذات النمط الواحد الانطباع بأنها عقيمة.

أمين معلوف : لم تنشأ الأسواق التقليدية كنموذج قابل للنقل، لأنها لا تؤدي وظيفتها إلا ضمن إطار تراكيب اجتماعية شاملة. وحيث لا تزال موجودة فإنها نتاجات للأوضاع المعيشية. ولكن فهمنا بأن شيئاً يؤدي وظيفته في مكان ما ولا يؤديه في مكان آخر، هو خطوة هامة للفهم. فالبازار التقليدي ربما سيختفي ومن سيبقي عليه، عليه أيضاً أن يبقي على أشياء أخرى كثيرة، مثل وضع أفضل بالنسبة للنساء. أيضاً ما يسمى بالمدينة العربية فهي موجودة مباشرة من الترابط المعيشي، من الصنع. ومن البديهي أن يغادر الناس مراكز المدن التقليدية، إذا ما استطاعوا ذلك. فالملايين تريد أن تقطع صلتها بتاريخها.

كريستيان ريدر : هناك تقديرات بأن ٤٠٠ مليون صيني سوف ينزحون إلى المدن خلال العقود التالية. وهذا ما يتعدى أطر التطورات المنظورة. وغالبية السكان هي - خارج نطاق الغرب - من الأجيال الفتية. ولكن لم يذكر فيما إذا كان ذلك سيؤدي إلى الهروب من التاريخ، أملاً بقطع دورات القصاص.

أمين معلوف: لا أحد يستطيع أن ينسى. لأن كل إنسان هو نتاج الحدث الذي يحيط به. قد ننسى بالطبع، لكن نتذكر مرة أخرى. هناك طرق عديدة للاحتيال على التاريخ لكن لا يمكن التخلي عنه كلياً.

كريستيان ريدر : يبدو أن تصعيد مشاعر الثأر، وبذلك تبقى الأعمال الإجرامية للآخرين – والأقربين - ماثلة كمجرد تاريخ، تبقى الطريق الوحيد بالنسبة للشرق الأوسط. ولكن حتى في مناطق يقال انها تنعم بالسلام في أوروبا لم يكن من الصعب نسبياً تسميم الأجواء وتأجيج العداوات التي كان يُظن أنها منسية.

أمين معلوف: هناك في كل مكان مجموعات تختلف في صورها التاريخية. وتوضيح المواقف يمكن أن يجعل بعض الأشياء أكثر وضوحاً. قد يحتاج تجاوز لحظات معينة عدة أجيال. إنها أيضاً مسائل معايير وفرص.

كريستيان ريدر : ذكر "تيدي كوليك" الذي ظل لسنوات طويلة عمدة القدس، وهو ذو جذور من فيينا بأن العرب واليهود قد يحتاجون إلى فترة تصل حتى قرنين، أي ستة أجيال توراتية حتى يعودوا للتعايش معاً سلمياً بالفعل.

أمين معلوف: يمكن القيام بالشيء الكثير من أجل تسريع مثل هذه العمليات. فالفهم العميق للماضي مهم. والأمر لا يتعلق بالنسيان، بل بالحسم فيما إذا كان الحكم على هذا الشيء أو ذاك يمكن قبوله أم لا. وإذا ما سحبنا ذلك على لبنان بتاريخه الذي يمتد ٥٠٠٠/٦٠٠٠ سنة فهناك أناس لا يعتبرون سوى تاريخ العالم العربي - الإسلامي مهماً، ويرون في ما تبقى مجرد احتلال. آخرون - على العكس- يؤكدون أنهم من أحفاد الفينيقيين. وكثيرون لم يقبلوا الصيغة التي تحدثت بها عن عصر الحملات الصليبية التي مضى عليها ما يقرب من ألف عام. فالأحداث التي لم يمض عليها سوى خمسين أو ستين عاماً، لها بخلفيتها آثارها اللاحقة . فنوعية الحوار هي التي تؤخذ في الحسبان.

كريستيان ريدر : أعجبني منذ طفولتي أنني لست نمساوياً "حقيقياً" لأنني مولود في بودابست من أم هنغارية. لقد جعلت معرفتي المتزايدة بالتاريخ الهنغاري المعاصر هذا التعاطف لصالح شيء آخر. فقد كان هذا القدر الهائل من القسوة

متشابهاً في كلا المجتمعين، حتى أن الانتماءات المشتركة الوهمية لا فائدة منها سوى أنها تضاعف الشعور بالعبء.

أمين معلوف : إن الفترات المظلمة التي مرت خلال الثلاثينات والأربعينات هي عار مطلق على كل فرد. ولكن الجواب على ذلك هو ليس أن يكره المرء نفسه. ربما كان من الأفضل أن نقوي من العمليات باتجاه الصراحة، حيث تتراجع فرص النزعة اللاسامية وكره الأجانب، المرتبطة بمستويات أخرى من التاريخ والرؤى.

Amin Maalouf: Les croisades vues par les Arabes. Paris 1983; Der Heilige Krieg der Barbaren. Die Kreuzzüge aus der Sicht der Araber. München 1997

أمين معلوف : "حرب البربر المقدسة. الحملات الصليبية من وجهة عربية"، باريس ١٩٨٣، ميونيخ ١٩٩٧.

Amin Maalouf: Les identités meurtrières. Paris 1998; Mörderische Identitäten. Frankfurt / M. 2000

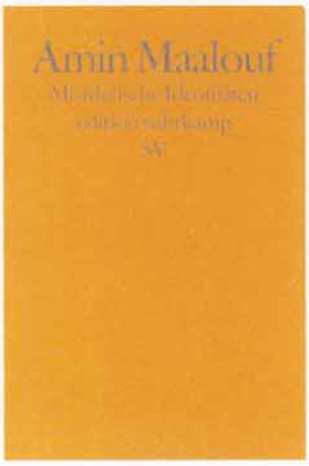

أمين معلوف : "انتماءات قاتلة"، باريس ١٩٩٨، فرانكفورت ٢٠٠٠.